التغيّرات التركيبية للصوامت الأسنانية (ث ، ذ ،ظ)

Structural changes to Soamt Dental (t̲ ,t* , d̲)

د. حسين مصطفى غوانمة
أستاذ مشارك في اللغة والنحو
جامعة العلوم الإسلامية العالمية– الأردن
كلية الآداب والعلوم/ قسم اللغة العربية

الملخص :

وسِم البحث بالصوامت الأسنانية (ث ، ذ ، ظ) ، حيث قدّم قراءة متأنية عن هذه الأصوات من شتى نواحيها؛ المخرج والصفات وهيئة النطق والتحولات الصوتية ، مبينًا نقاط التلاقي والافتراق بينها، وقد أظهر أن هذه الأصوات وفق ما درس من تبدلاتها الصوتية تتفق في موضع نطقها عند علماء اللغة المتقدمين والمحدثين في أغلب صورها ، وقد أكد البحث ذلك من خلال التحولات النطقية لها في الفصحى والعامية بصورتيها المطلقة والمقيدة، وذلك بتحول الصوت إلى آخر دون قيد ، أو تحوله بمجاورته لصوت ثان في سياقات صوتية معينة .

الكلمات المفتاحية : التغيّرات التركيبية ، الصوامت الأسنانية ، المخرج ، الصوت اللغوي .

Abstract:

Marking search Balsoamt Dental (t̲ ,t* , d̲), where he presented a careful reading of all these sounds from various aspects; director, attributes and body pronunciation and audio transitions, indicating convergence and divergence between them points, showed that these votes as he studied voice Tbdladtha consistent in the position pronounced when applicants and modern linguists in most of its forms, has confirmed search through her grave accent shifts in the classical and vernacular absolute and unrestricted Besortaha, so the transformation of sound to another without restriction, or transformation Bmgeorth to the voice of a second in a particular sound contexts.

Keywords: structural changes, the dental consonants, the director, the sound of language.

تمهيد:

تحدث القدماء والمحدثون عن مفهوم الحرف والصوت قديماً، مع تفريق سيبويه بين أصول الحروف وأنواعها، فلم يكن يفرق بين اصطلاحي(الحرف) و(الصوت) على نحو ما فرّق علم اللغة الحديث بينهما. فالصوت؛ هو الأثر السمعي الذي تحدثه تموجات ناشئه من اهتزاز جسم ما.

وأما الحرف؛ فهو ما لا يدل على معنى في نفسه وإنما يدل على معنى في غيره مثل: (من) و(إلى) والمراد أن الحرف ليس له معنى مستقل ولا مفهوم خارجي بحيث إذا نطق به وحده إنه لا يفهم منه معنى.(1)

حظيت دراسة الصوت اللغوي أو الصوامت اللغوية بأهمية بالغة عند كثير من الأمم السابقة؛ بقدر من التأمل والنظر، ويكفي أن نعلم أن هذا النظروإن كان بسيطاً، يسيراً في بعض أبعاده، قد أدى إلى إنجازات هائلة في تاريخ البشرية. وهذا دليل على أهمية تلك الدراسات.(2)

فقد قام بعض علماء اللغة بوصف تلك الصوامت وصفاً دقيقاً، من حيث المخارج والهيئات المختلفة للصامت الواحد. فقد فعل الهنود ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد. وكان بانيني من علمائهم البارزين، أما العرب ومنهم سيبويه وابن سينا وغيرهم فقد حازوا قصب السبق في دراسة الأصوات اللغوية خصوصاً علماء القراءات القرآنية، حيث وصفوا هيئات النطق المختلفة من جهر، وهمس، واستعلاء، وإطباق، وترقيق، وشدة، ورخاوة، وتوسط ... وغير ذلك.(3)

أولاً: الصامت الأول (الثاء).

*تحديد موضع نطق الثاء بين القدماء والمحدثين:

حدد سيبويه موضع نطق حرف الثاء فقال:" ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء، والذال، والثاء"(4) وتبعه في ذلك كثير من علماء اللغة من نحو ابن السراج(5)، والاستراباذي(6)، ومكي بن أبي طالب(7)، والقرطبي(8)...وغيرهم ، وكذلك ذكر عنه إمام العربية أبو الفتح عثمان بن جني بأنه:"أحد حروف النفث".(9) كما ذكر عنه أبو بشر عمرو بن عثمان قائلاً:"إن حروف الظاء والثاء والذال، هُنّ من أطراف اللسان وأطراف الثنايا، وهن أخواتٌ، وهن من حيز واحد".(10) وعلى هذا النهج كان تحديد موضع نطق صامت الثاء عند قدماء العرب.

أما المحدثون فقد حددوا موضع نطقه، فقال كمال بشر إنه:"يوضع طرف اللسان حال النطق بهذا الصوت بين أطراف الثنايا العليا والسفلى بصورة تسمح بمرور الهواء من خلال منفذ ضيق فيحدث الاحتكاك، مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف ومع عدم تذبذب الأوتار الصوتية". (11) كما ذكر عنه مناف الموسوي فقال إنه:" يتم نطقه بوضع طرف اللسان بين أطراف الثنايا العليا والسفلى بصورة رخوة تسمح للهواء بالمرور من منفذ ضيق فيسبب احتكاكاً في ذلك الموضع، كما يرتفع الطبق فيلتصق بالحائط الخلفي للحق كي يسد مسد المجرى الأنفي".(12) ، ووصفه سليمان فيّاض بأنه" من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا".(13) وعليه فبإمكاننا أن نقول إنّ القدماء والمحدثين قد اتفقوا على أنّ مخرج حرف الثاء هو من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا والسفلى.

– صورة توضيحية عن موضع مخرج صوت الثاء:

–السمة النطقية لصوت الثاء بين القدماء والمحدثين:

قام العلماء القدماء بوصف الأصوات من حيث السمة النطقية أي من خلال الجهر والهمس فوصفوا صوت الثاء.

فقال عنه سيبويه:"إنه صوت رخو مهموس".(14)، وتبعه في ذلك ابن جني

حيث وصفه "بالمهموس".(15) وهكذا كان وصف القدماء لصوت الثاء من حيث الهمس والرخاوة أي السمة النطقية له.

أما المحدثون، فقد وصفوه بصفات مشابهة لما قد ذكره القدماء، حيث ذكر سليمان فياض بأنه:"صوت مهموس رخو".(16) وتبعه في ذلك مناف الموسوي(17)، وعمار البوالصة(18)، وعصام نور الدين(19)، فقد أجمعوا جميعهم على أنه صوت (رخو ومهموس).

ثانياً: الصامت الثاني (الذال).

*تحديد موضع نطق الذال بين القدماء والمحدثين:

قام سيبويه بتحديد موضع نطق صوت الذال، فقال:" مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا"(20)، وتبعه في ذلك عدد من علماء اللغة المتقدمين مثل ابن السرّاج وابن جني والقرطبي... وغيرهم.

أما المحدثون، فقد حددوا موضع نطقه حيث ذكر عنه سليمان فيّاض قائلاً:بأنّ مخرجه"من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا".(21) وقام مناف الموسوي بذكر مخرج نطق حرف الذال بدّقة فقال:"هو التقاء طرف اللسان بحافة الأسنان مع السماح للهواء بالخروج من بينها، أي خروج الهواء من المجرى الضيق فيحصل الحفيف بسبب احتكاك الهواء وارتفاع الحنك الأعلى ليسد المجرى الأنفي، مع عدم تقعر اللسان، فالصوت مرقق بالإضافة إلى اهتزاز الوترين الصوتيين، فهو صوت مجهور".(22)

أما كمال بشر فوصف مخرجه بقوله:"فالذال إذن صوت مما بين الأسنان".(23)

-صورة توضيحية لمخرج صوت الذال:

-السمة النطقية لصوت الذال بين القدماء والمحدثين:

جعل القدماء وعلى رأسهم سيبويه صوت الذال من الأصوات الرخوة المجهورة(24).

كما قال عنه كمال بشر من المحدثين بأنه :"هو النظير المجهور للثاء، فلا فرق بينهما إلا أن الأوتار الصوتية تتذبذب في حال النطق بالذال، فالذال إذن صوت مما بين الأسنان احتكاكي مجهور".(25)

وقال أيضاً عنه مناف الموسوي بأنه:" هو النظير المجهور للثاء، أي أنه صوت رخو مجهور مرقق"(26)، وتبعه في ذلك سليمان فيّاض بأنه صوت مجهور رخوّ.(27) كما أنّ عصام نور الدين قام بتصنيفه ضمن الأصوات المجهورة. (28)

ثالثاً: الصامت الثالث(الظاء).

*تحديد موقع نطق صوت الظاء بين القدماء والمحدثين:

قام العلماء القدماء بتحديد مخرج موضع نطق صوت الظاء، فقال سيبويه:"إنّ الظاء والثاء والذال من طرف اللسان وأطراف الثنايا".(29) وتبعه عدد من العلماء كما سبق وذكرنا ذلك في حرفي الثاء والذال، فهذا ما اتفق عليه العلماء القدماء في تحديد موقع النطق لصوت الظاء.

أما المحدثون، فقاموا بتحديد موقع صوت الظاء ومنهم عمار البوالصة حيث قال:"إنّ المجموعة الكبرى من الأصوات المتقاربة المخارج، وهي مكونة من الذال والثاء والظاء،ووجه الشبه بين كل هذه الأصوات هو أنّ مخارجها تكاد تنحصر بين أول اللسان وطرفه، والثنايا العليا"(30)، وقال عنه سليمان فيّاض بأنه صوت مجهور رخو مطبق(31).

كما قام مناف الموسوي بوصفه بدقه فقال:"بأنّ حرف الظاء هو صوت أسناني، وتتم عملية نطقه من خلال التقاء طرف اللسان بحافة الأسنان مع السماح للهواء بالخروج من بينهما ومن خلال خروج الهواء من المجرى الضيق بسبب احتكاك الهواء بما يسمى بالحفيف، فيرتفع مؤخر اللسان نحو الحنك الأعلى مع رجوعه باتجاه الحائط الخلفي للحلق"(32). ووصفه كمال بشر بأنه "صوت مما بين الأسنان".(33)

صورة توضيحية لموضع نطق صوت الظاء:

–السمة النطقية لصوت الظاء بين القدماء والمحدثين:

إنّ السمة النطقية لحرف الظاء هي أنه :"من الأصوات المجهورة"(34)، ويقول سيبويه في صفة الظاء الاحتكاكي:"ولولا الإطباق لصارت الظاء ذالاً"(35)، وقام عصام نور الدين بتصنيفه ضمن الأصوات المجهورة والمطبقة(36)،وذكره عمار البوالصة بأنه من الأصوات الرخوة المجهورة(37)، وقال ذلك كمال بشر(38)، وسليمان فيّاض(39)،وقام مناف الموسوي بوصفه بأنه صوت أسناني رخو، ومجهور ومفخم، ويتسم بالإطباق.(40)

بعد أن ذكرنا كيفية خروج أصوات الثاء والذال والظاء، وقمنا بذكر موضع أو طريقة نطق تلك الحروف، و السمات النطقية لها ، فيمكننا أن نقسّم تلك الأصوات إلى مجموعتين من حيث السمات، فإما تنتمي تلك الأصوات إلى مجموعة أصوات الجهر والهمس عند المحدثين، يقابلها الشدة والرخاوة عند القدماء، ومجموعة أصوات الإطباق، لأنّ صوت الظاء يعدونه صوتا من الأصوات المطبقة.

أما الجهر والهمس عند القدماء، فقد عرفهما سيبويه قائلاً :أما الصوت المهموس فهو"حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه حتى جرى النفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهور لم تقدر عليه".(41)

كما يعرّفه إبراهيم أنيس وهو من المحدثين بأنه:"الصوت الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان، ولا يسمع لهما رنين حين النطق به، وليس معنى هذا أنّ ليس للنفس معه ذبذبات مطلقاً، وإلا لم تدركه الأذن، ولكن المراد بهمس الصوت هو صمت الوترين الصوتيين معه، رغم أنّ الهواء أثناء اندفاعه من الحلق أو الفم يحدث ذبذبات يحملها الهواء الخارجي إلى حاسة السمع فيدركها المرء من أجل هذا،والهمس عكس الجهر في الاصطلاح الصوتي.

أما الجهر فقد عُرّف بأنه:"يحدث عندما تكون الأوتار الصوتية متقاربة أو منتظمة، حيث يكون هناك ممر ضيّق جداً بينهما وجريان الهواء يؤدي إلى اهتزاز الأوتار الصوتية".(42)

وعلى ذلك قام سيبويه بتقسيم الحرف إلى قسمين وهما المهموس والمجهور وقام بذكر حرف الثاء بأنه حرف مهموس أما حرف الذال والظاء فهما من الحروف المجهورة، ثم قام بتوزيع الحروف أو الأصوات إلى الشديدة أو الرخوة وذكر أن كلاً من حروف الثاء والذال والظاء هي من الحروف الرخوة. (43)

إذ لا يوجد فرق بين الذال والثاء إلا في أن الثاء مهموس لا يتحرك معه الوتران الصوتيان، فالذال إذًا صوت مجهور نظيره الثاء المهموس(44) ، وهنالك حروف ما بين الشدة والرخاوة وفيهما يقول سيبويه :" الشديد هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه،أما الرخو هو الذي أجريت فيه الصوت إن شئت".(45)

واستبدل ابن سينا مصطلح كلاً من (الشديد والرخو) بمصطلحين آخرين هما (المفرد والمركب)، فجعل المفرد مقابل الشديد، والمركب مقابل الرخو، وعرفهما قائلاً:" الحروف بعضها مفردة، وحدوثها من حبسات للصوت أو الهواء الفاعل للصوت، يتلوها الإطلاق دفعة، وبعضها مركبة، وحدوثها عن الحبسات غير التامة، لكن تتبع إطلاقات، وهذه مفردة تشترك في أن وجودها وحدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس وزمان الإطلاق. وذلك لأن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحدث فيه صوت حادث عن الهواء ، وزمان الإطلاق ليس يسمع فيه شيء من هذه الحروف لأنها لا تمتد البته،وإنما هي مع إزالة الحبس فقط".(46)

وأما بالنسبة للإطباق، فنرى بأنّ مفهوم الإطباق هو: العملية النطقية التي تؤدي إلى حدوث التفخيم في الأصوات، حتى إن القدماء كالقرطبي من ذهب إلى أنّ التفخيم والإطباق والاستعلاء نظراء من واد واحد،(4) كما أن المرعشي يفاضل فيما بينها فجعل الظاء أضعفها-أي أضعف حروف الإطباق-،(47) أما سيبويه عرّف الإطباق قائلاً:"ومنها المطبقة والمنتفخة، فأما المطبقة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء"،(48) وتبع علماء العربية القدماء وعلماء التجويد سيبويه في تعريفه هذا، ومنهم : ابن السرّاج،(49) وابن جني،(50) وابن يعيش.(51) .

ويرى كل من تمام حسان،(52) و سمير استيتية(53)أنّ ما جاء به سيبويه ومن تبعه يتفق اتفاقاً تاماً مع وجهة النظر الحديثة في العملية النطقية الحركية للإطباق والتفخيم الناتج عن الإطباق. أما فيما أورده تمام حسان في ملاحظاته حول تعريف سيبويه للإطباق، فقد لخصها في النقاط الآتية:

1-الحروف المطبقة وهي: ص، ض، ط، ظ.

2- أنّ الإطباق يتم برفع اللسان إلى الحنك الأعلى.

3- أنّ الإطباق يحصر الصوت من حيث الأثر السمعي.

4- أنّ اللسان حين يرتفع إلى الأعلى يكون لهذه الحروف موضعان من اللسان أحدهما موضع المخرج وهو طرف اللسان، وثانيهما موضع التفخيم وهو مؤخر اللسان المرتفع إلى الحنك.(54)

وعليه، فيمكنا أن نلخص صفات كل من الثاء، الذال، والظاء بالنظر إليها من ثلاث زوايا وهي:

أولاً: كيفية خروج الهواء في أثناء النطق.

ثانياً: اهتزاز الأوتار الصوتية أو عدم اهتزازها عند النطق بالصوت وهو ما يعرف بالجهر والهمس.

ثالثاً: ارتفاع مؤخرة اللسان أو انخفاضها في أثناء النطق بالصوت، وهو ما يعرف بالإطباق.(55)

– التغيرات التركيبية للأصوات اللغوية ومنها أصوات الثاء، والذال، والظاء:

تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض عند تجاورها في الكلمة الواحدة، أو في كلمتين متجاورتين، وذلك لأنّ اللغات تميل بطبيعتها إلى الانسجام الصوتي، واللغة العربية لم تبتعد عن هذه الظاهرة، ففيها إذا التقى صوتان من مخرج واحد، أو من مخرجين متقاربين- سواء أكان ذلك في كلمة واحدة أم كلمتين- أحدهما مجهوراً والآخر مهموساً-على سبيل المثال- حاول كل واحدٍ منهما أن يجذب الآخر ناحيته، ويجعله يتماثل معه في صفاته كلها أو في بعضها، فيمنح أحد الصوتين للآخر شيئاً من خصائصه، أو كل خصائصه للآخر، ليحدث التجانس الصوتي، أو التقارب الصوتي، فيتماثلان، ويدغمان إدغاماً متماثلاً أو متجانساً، أو متقارباً وذلك بحسب الأصوات المتجاورة.(56)

وقد يكون هذا التأثر ناتجاً عن نطق اللغة العربية القومية التي تسمى في الاصطلاح اللغوي باللغة المشتركة، ومن أمثلتها اللغة الفصحى في المجتمع العربي، فإذا ما أرشد هؤلاء المتعلمون إلى أصوات هذه اللغة سهل عليهم إجادة نطقها، وحسن آدائها واستطاعوا بالتدريج أن يتخلصوا من تلك العادات.

وعليه، فبإمكاننا أن نستنتج خاصيتين من أسباب تأثر الحروف العربية ببعضها، وهما:

أولاً: التقريب بين عادات النطق المحلية المختلفة، وتذويب الفروق بينها بقدر الطاقة، وذلك يدل على أنّ هناك نوعاً من التقارب بين طبقات الأمة الواحدة في مجالات الحياة المتنوعة سواء أكانت من النواحي الاجتماعية أو الاقتصادية والثقافية.

ثانياً:تخليص اللغة المشتركة من الآثار الصوتية ذات الطابع المحلي الضيق وبخاصة في عهود القوميات وفترات النهضات، حيث توجب عليهم ظروف العمل على تكون لغة قومية مشتركة تصلح للتفاهم العام بين أبناء الأمة الواحدة.(57)

ونستنتج من ذلك كله أنّ هذا التأثر والتقارب الصوتي مهما كانت أسبابه أو دوافعه، فقد قسمه علماء الأصوات اللغوية حسب تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض كالآتي:

أولاً: التأثر الرجعي، وفيه يتأثر الصوت الأول بالثاني، وهذا كثير الشيوع في اللغتين الفرنسية والعربية.

ثانياً: التأثر التقدمي، وفيه يتأثر الصوت الثاني بالأول، وهو الشائع في اللغة الإنجليزية والعربية أيضاً.(58)

أولاً: التغيرات الصوتية أو التحولات النطقية لصوت الثاء:

***إبدال الثاء بتاءٍ.**

علاقة صوت الثاء مع التاء هي علاقة صوت مهموس بمهموس، مما أدى إلى سهولة التأثر بينهما، فتتأثر الثاء في(افتعل) بالتاء بعدها فتقلب (تاء) نحو: اثترد ـ اترّد، وهو مُترّد، قال سيبويه: والقياس متّرد، لأن أصل الإدغام أن يدغم الأول في الآخر ومنه اثتأر- اتأر، فقال لبيد بن ربيعة:

والتيّب إن تعر مني رِقّة خلقاً بعد الممات فإني كنت اتّئر

ومثله اثتنى ــ اتّنى في قول الآخر:

بدا بأبي ثم اتّنى ببني أبي وثلث بالأدنين ثقف المخالب.(59)

فحرف الثاء،لا يكون إلا أصلاً،فاءً وعيناً ولاما، فالفاء نحو ثمر، والعين نحو جثل، واللام نحو بحث.

وأن الثاء إذا وقعت فاء في (افتعل) وما تصرف منه قلبت تاء، وأدغمت في تاء افتعل بعدها، وذلك قولهم في افتعل من اثترد: اتّرد، وهو متّرد ، فقلبت الثاء إلى التاء لأنّ الثاء أخت الثاء في الهمس، فلما تجاورتا في المخارج أرادوا أن يكون العمل من وجه واحد، فقلبوها تاء، وأدغموها في التاء بعدها ليكون الصوت نوعاً واحداً، ومثل ذلك قولهم في (افتعل) من الثّأر ــ اتّأر، وفي (افتعل) من ثنى: اتّنى.

ومن ذلك قول الشاعر لبيد:

و النّيبُ إن تعر مني رمةً خلقاً بعد الممات فإني كنت أتّئِرُ.(60)

تتطور الثاء إلى التاء في اللغة العامية على نحو: اتنين، بدل اثنين، وتلاته بدل ثلاثة، أكتر بدل أكثر، وتعلب بدلاً من ثعلب.(61)

أما في اللغة اليهودية فتقلب الثاء إلى تاء كما قال السموأل:

يَنفَعُ الطيّب القليل من الرزقِ ولا ينفعُ الكثير الخبيثُ

ذُكرت هنا بالتاء بدلاً من الثاء وهذا تأكيد على قلب لغة اليهود تاءً بدل الثاء ،أي: قلبوا الثاء إلى نظيره الرخو وهو التاء.

ودليل آخرعلى نطق الثاء تاء باليهودية هو ما عزته الأصمعيات إلى السموأل من قوله:

وأتتني الأنباء أني إذا ما متّ أو رمّ أعظمي مبعوثُ

ذكر هنا السموأل كلمة مبعوت بالتاء وهي الأصل أن تنطق بالثاء على نحو مبعوث.(62)

أدى انتقال اللغة من السالفين إلى اللاحقين إلى تغير الثاء تاءً ككلمة ثوب، وثلج، وثعبان، وثلث، تتحول إلى: توب، تلج، تعبان، تلت، وقد جاء مثل هذا عن العرب من قولهم:(وتن بالمكان يتن وتناو وتوناً- إذا أقام به) وكذاك تنطق وثن ويثن وثنا ووثونا أيضاً. (63)

***إبدال الثاء بطاءٍ.**

تكون الثاء بمنزلة الطاء من التاء وذلك قولك: احفَذّلكَ فتدغم، وتدغُ الإطباق. وإن شئت أذهبته. وتقول:احفثالك. وإن شئت أذهبت الإطباق. وإذهابه مع الثاء كإذهابه من الطاء مع التاء.(64)

***إبدال الثاء سيناً.**

تقلب الثاء سيناً وخاصة باللغة العامية ،كما في كلمة (سَورَة) بدلاً من ثَورَة(65)، و(سُريا) أي (ثُريا)، و(التُرَاس) بدلاً من (التُراث)، و(السقافة) أي (الثقافة)، و(كوسر) بدلاً من(كوثر)، و(البَحس) بدلاً من (البحث).(66)

*** إبدال الثاء بفاءٍ.**

إنّ حرف الثاء صوت أسناني بينما الفاء صوت شفوي أسناني، ويلاحظ أنّ بين الحرفين علاقة تسمح بانتقال أحد الصوتين إلى الآخر، فالفاء رخو مهموس، والثاء كذلك، وهما متقاربان من حيث الصفة ومن حيث المخرج بأنّ كلاهما أسناني.

يُقال إنّ (الجدث) وهو القبر بلغة أهل الحجاز أي ينطق بالثاء، و(الجدف) لبني تميم وهنا تمّ نطقها بالفاء، كما يميل ابن جني إلى أنّ الثاء هي الأصل، حيثُ قال:(ألا ترى الثاء أذهب في التصريف من الفاء) واستدلّ على قوله من القرآن الكريم فقال تعالى:" فإذا هم من الأجداث" .

وقوله تعالى أيضاً:" من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها" سورة البقرة [61]. فعلى هذا تكون الثاء هي الأصل، أي الثاء تحولت إلى الفاء في لغة تميم إذ إنّ الأصل في كلمة (فومها) هي الثاء، ونؤكد ذلك بأنّ كلمة (ثوم) باللغة العبرية (شوم) وباللغة الآرمية (توما) أي الشين والتاء ناشئتين عن الثاء. وهنا يؤكد ابن جني أنّ الفوم بالفاء هي الحنطة والثاء هنا هي الأصل في ذلك. وإذا تأملنا في قراءات القرآن الكريم، حيثُ أنها كتبت في مصحف ابن مسعود"وثومها" بالثاء، وقرأت بالثاء عند علقمة وابن عباس.(67)

ولا نشك بأنّ الإبدال بين الثاء والفاء قديم عند العرب؛ حيثُ وردت بعض من الأمثلة تشير إلى أنّ تميماً تقول:(تلثمتُ) على الفم وغيرهم يقول (تلفمتُ)، نقل هذا صاحب المصباح عن ابن السكيت، وإنّ بعض اللغويين فرق في المعنى بين اللفام واللثام ؛ فاللثام على الأنف ، واللفام على الأرنبة، ربما كانت هنا صيغة الفاء هي الأصل لسهولة انتقال الفاء إلى الثاء، فأبدلت الفاء ثاءً في لغة بني تميم، حيثُ الثاء لتميم أليق؛ فهي تتسم بالبداوة وتكون واضحة للسمع أكثر من الفاء، كما أُكِّدَ على ما قيل قول النابغة يمدح النعمان ويعتذر له:

" لا تقذفني بركن ولا كفاء له * * * وإن تأثفك الأعداء بالرفد"(68) وهذه إشارة لبيان الأصل والفرع على كثرة الاستعمال.(69)

ثانياً: التغيرات الصوتية أو التحولات النطقية لصوت الذال:

*** إبدال الذال دالاً.**

مما يسوغ الإبدال بين الذال والدال هي انتقال الذال إلى الوراء قليلاً فيصادف الدال فتتغير صفة الذال من الرخاوة إلى الشدّة فتصير دالاً.

مثال على ذلك: قول أبي عمرو الشيباني فقال:"ما ذقت عدوفاً ولا عدوفة".

قال: كنت عند يزيد بن مزيد فأنشدته بيت قيس بن زهير:

ومجنّباتً ما يذقن عدوفةً يقذفَنّ بالمهراتِ والأمهارِ

وفي هذا البيت تم نطق كلمة(عدوفة) بالدال، فقال: قال لي يزيد: إنما هي عذوفة بالذال.(70)

وكذلك تتحول الذال إلى دالاً كما جاء عن أبي الطيّب فقال:(ذبرتُ الكتاب) من أذبر، ذبراً إذا كتبته وقال اليزيدي دبرته ، دبراً بالدال.

وحديثاً تطور هذا الصوت في اللغة العامية، بنقل صوت الذال إلى دال ككلمة:(دهب) بدلاً من (ذهب)، و(الديب) بدلاً من (الذيب)(71)، وقولهم (دبح دبيحة) بدلاً من (ذبح ذبيحة)، و(دايبه) أي (ذايبه)، و(داني) بدلاً من(ذاني)-أي الأذن- ، و(دكر) أي (ذكر) خاصة باللغة المصرية، وكل هذه التغيرات في اللغة العامية جاءت من باب السهولة اللفظية، فنحن ننقل الذال إلى الوراء قليلاً فتصبح دالاً وهذا من باب السهولة.(72)

***إبدال الذال زاياً.**

من التنوعات النطقية لحرف الذال هو أن يقلب زاياً، خصوصاً في اللهجات الآرمية قديماً، ولكن شيوع هذه الظاهرة على الأغلب هو حديثاً أي باللغة العامية الحديثة ،إما المصرية أو السورية كقولهم: (كزالك) أي (كذلك)، و(مزهب) أي (مذهب)، و(زَهَبَ) بدلاً من (ذَهَبَ)، و(كزا مرة) بدل من (كذا مرة)، و(زات مرة)أي (ذات مرة)، و(التنفيزية) بدلاً من (التنفيذية)، و(زوء)أي (ذوق)، و(بزلت جهداً) بدلاًمن (بذلت جهداً).(73)

***إبدال الذال ثاء والعكس.**

تتبدل الثاء ذالاً فصوت الثاء مهموس وصوت الذال مجهور ولكنهما يجتمعان من حيث المخرج فكلاهما مخرج أسناني لثوي فتتبدل الذال ثاءً مثل قولهم: جذوت وجثوت.

كقول أبي علي:

إذا شئت غَنَّتني دهاقين قريةٍ وصَنَّاجةٌ تجذو على كل مَنسِمِ

ذكرت هنا كلمة تجذو بالذال بدلا من الثاء.

وكذلك قولهم: تَلَعثمَ بدلاً من تَلعذمَ ، وقولهم حَذحاذ بدلاً من حَثحاث، وقول تأبط شراً:

كأنما حثحثوا حُصاً قَوادمُه أم أمَّ خشفٍ بذي شَثّ وطبّاقِ

هنا كلمة حثحثوا أي أسرعوا وقولهم حثحاث إذا كان سريعاً.(74)

وتنطق الذال ثاء في بعض الأمثلة الكويتية مثل قولهم:" ذياب ملِبّسَه ثياب" و"ثومه ماكوله مذمومة".(75)

ثالثاً: التغيرات الصوتية أو التحولات النطقية لصوت الظاء:

***إبدال الظاء بطاءٍ.**

يقول ابن جني إنّ حرف الظاء يكون أصلاً لا بدلاً ولا زائداً، فإذا كان أصلاً وقع فاء وعيناً ولاماً. فالفاء نحو ظُلمٍ، والعين نحو عظمٍ، واللام نحو حفظٍ.

وذكر أنّ الظاء لا توجد في كلام النَّبط أي اللغة النبطية، فهي تقلب طاء حيثُ أنهم قالوا: (ناطور) بدلاً من (ناظور)، و(البُرطُلَّة) بدلاً من(البُرظُلَّة)، ففي قول أحمد بن يحيى:

تُعَذَّينا إذا هَبَّت علينا وتملأ وجه ناطِرِكم غُبارا

وقولهم أيضاً مُستَطِر وإنما هم مُستَنظِر.

كما ذكرت في شعر المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثَعالبها فقد بَشِمنَ وما تَفنى العناقيد

فالمتنبي ذكرها بالطاء.

ثم أنشدها ابن الأعرابي قائلاً:

وشَفَّ فؤادي أن للعذبِ ناظراً حماه'، وأني لا أَعِيج' بمالِحِ

فذكرها ابن الأعرابي بالظاء بناظراً.(76)

فكلمة ناظر، إما تنطق بالطاء كما ذكرها المتنبي أو بالظاء كما ذكرها ابن الأعرابي، والأصح أن تنطق بالظاء.

وفي إبدالهما تتأثر الظاء بإرجاء اللسان إلى الوراء قليلاً لتصبح طاءا، فتتأثر الظاء فيما بعدها بالكلمات لتصبح طاءاً بالنطقَ، وذلك على نحو: اظطلم ـ اطَّلم، ومظطعن ـ مطّعن ويقارن سيبويه بين مطّعن ومطّلم، فيقول بأنّ الأصل بالإدغام بأن يتبع الأول الآخر.(77)

***إبدال الظاء ذالاً.**

تتبدل الظاء ذالاً كقول أبي علي ، عن أبي بكر ،عن بعض أصحاب يعقوب، يقال:(تركته *وَقيذاً ووقيظاً)، وهنا الأصح أن تكون الظاء بدلاً من الذال، ولكنها ذكرت في القرآن الكريم فقال تعالى:(والموقوذة) بالذال، ولقولهم: وقذه يقذه، ولم يسمع ابن جني وقظهُ، ولاموقوظة، فالذال هي الأعم في الاستعمال، فلذلك قضى أنها الأصل، وإنما الظاء هي الأصل .(78)

***إبدال الظاء بالضاد.**

يمكن أن نلمح التبادل والتطابق بين الضاد والظاء في المصاحف القديمة المندثرة، كمصحف ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن العباس...وغيرهم، كما أنّ فواصل القرآن الكريم تهدينا إلى التشابه بين صوتي الضاد والظاء، وذلك في آيتين متتاليتين من قوله تعالى:" ولنذيقنهم من عذاب غليظ" (فصلت 50) و "وإذا مسّه الشر فذو دعاءٍ عريض" (فصلت 51).

وقد تكون صيغة الضاد هي الأصل وتطوّرت عنها الضاد لأنّ الصوت الرخو يتطوّر إلى نظيره الشديد، فبنو تميم أو التميمية تميل إلى الأصوات الشديدة وبنو الحجاز أو الحجازية تميل إلى الأصوات الرخوة، فالذين يجاورون أهل الحجاز ينطقون بالظاء وأهل البادية بالضاد،

ويظهر أنّ الضاد التي وصفت في كتب القدماء قد مرّت بأطوار تاريخية حتى وصلت إلى ما هي عليه في لهجاتنا الحديثة، ولا يزال كثيراً من البلاد العربية تنطق الضاد كالظاء، ففي اللغة العبرية الضاد ظاء، وفي وقتنا الحالي وخاصة في العراق والأردن تنطق الضاد بالظاء كقولهم :(عريظ)بدلاً من (عريض)..... وغيرها .(79)

* الوقيذ من الرجال: أي شديد المرض الذي قد أشرف على الموت.

وقد تنطق بالعكس في لغاتنا الحديثة أو العامية ، فنقوم بنطق الظاء ضاداً، أي يتطوّر الصوت من الشديد إلى الرخو مثل: (ضِل) بدلاً من (ظل)، و(ضابط) أي(ظابط).

ولا شكّ في أنّ بعض العرب حافظ على نطق الظاء ظاء كما في اللهجات الخليجية مثل قولهم في بعض من الأمثلة الشعبية عندهم:"ظُلمٍ بالسّويّة عدل بالرِعّية"، وفي نطقهم بعض الكلمات مثل: (الظهر)أي وقت الظهيرة ، و(ظُالم) من الظلم... وغيرها من الألفاظ العامية عندهم.(80)

***إبدال الظاء بالزاي المفخمة.**

من التنوعات الصوتية لصوت الظاء هو أن يقلب زايا مفخمة، وهذا هو النطق المعتاد في اللهجات العامية بمصر(81)، وسوريا، ولُبنان، فهم على الأغلب يقومون بنطق الظاء زايا مفخمة كقولهم: (بحافز) بدلاً من (بحافظ)، و(النِزام) بدلاً من (النظام)، و(الوزيفة) بدلاً من (الوظيفة)، و(زابط) بدلاً من (ظابط).(82)

فبإمكاننا أن نستنتج أنّ التطوّر اللغوي يحدث تلقائياً، دون شعور أو وعي الإنسان، فإذا كان الصوت ثقيلاً بالنطق قام بإبداله إلى نظيره من الأصوات أو إرجاع اللسان من خلال النطق إلى الوراء قليلاً، فينتقل الصوت إلى صوت آخر.

فهذا التطوّر غير فردي بل هو جماعي، ويسير ببطء وتدّرج شديدين، فتطوّر الأصوات لا يحدث فجأة بين يوم وليلة، وإنما يظهر أثره بعد أجيال، ولكن بعض من ظواهر التطوّر الصوتي يقتصر أثرها على بيئة معينة، ولا نكاد نعثر على تطور صوتي بحق بجميع اللُغات الإنسانية، كما أنه محدود بزمان معين؛ أي عمله قد يتوقف بعد فترة من الزمن، وتعتاد عليه البشرية.(83)

ويمكننا أيضاً أن نقسّم التطورات الصوتية بشكل عام إلى نوعين، إما مطلقة أو مقيدة.

فالمطلقة: هي التطورات التي تحدث من التحول في النظام الصوتي للغة، بحيثُ يتحول الصوت اللغوي إلى صوت آخر في اللغة.

أما المقيدّة، فهي التطورات التي تحصل للأصوات بفعل تجاورها في سياقات صوتية معينة، وهي مشروطة بعوامل صوتية. ووصفها ابن جني بأنها عملية من عمليات الإدغام الأصغر ووصفها بأنها عملية تقريب صوت من صوت وأطلق عليها مرة ثانية بأنها لفظ التجنيس، وذلك حيث قال:"أنهم أرادوا تجنيس الصوت، وأن يكون العمل من وجه بتقريب حرف من حرف" وأطلق على هذه الظاهرة أيضاً التشاكل بين الأصوات لتحصيل التشاكل والفرار من نفرة الخلاف.(84)

***الخاتمة:**

تكمن أهمية البحث في معرفة مواضع نطق صامت الثاء والذال والظاء، ومعرفة أقوال المتقدمين والمحدثين عن تلك المواضع، وصفات تلك الحروف، حيثُ كانت تسمى عند المتقدمين بالشدة والرخاوة، وعند المحدثين بالهمس والجهر، إضافة إلى بيان أهمية تلك الأصوات باختلاف أصواتها في مواضع النطق إن كان من خلال إدغامها أو إبدالها بحرف نظير لها، من خلال تحولاتها الصوتية بيانًا لهيئات نطق العرب لها .

المصادر والمراجع:

- أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، فوزي الشايب، الأردن، 2004.

- أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، ت: محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، مصر،1915.
- الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس، ط4، مصر، 1992.
- الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير شريف استيتية ،ط1، 2002.
- الخصائص، أبي الفتح عثمان بن جني، ط4، مصر، 1991.
- خصائص اللهجة الكويتية دراسة لغوية ميدانية، عبد العزيز مطر، الكويت،1969.
- دراسات في علم اللغة ،كمال بشر، مصر، 1969.
- الرعاية لتجويد القرآن وتحقيق لفظ التلاوة، أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي،ت:أحمد فرحات، الأردن، 2008.
- سر صناعة الإعراب، أبي الفتح عثمان بن جني، دمشق.
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الاستراباذي ، الدار العلمية، بيروت،1975.
- علم الأصوات العالم، بسام بركة، بيروت،1988.
- علم الأصوات اللغوية، مناف مهدي الموسوي،بيروت،1998.
- علم اللغة العام (الأصوات)، كمال محمد بشر،ط2 ، مصر، 1973.
- علم اللغة العام مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران ،ط2، دار الفكر العربي، 1997.
- علم وظائف الأصوات اللغوية الفونولوجيا، عصام نور الدين، بيروت،1992.
- الفكر اللغوي عند إبراهيم أنيس،عمار إلياس البوالصة، الأردن،2010.
- كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن جني ، بيروت.
- اللسانيات المجال، والوظيفة، والمنهج، سمير شريف استيتية ، الأردن،2005.
- اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندي، ط1: النظامين الصوتي والصرفي،الدار العربية للكتاب، 1983.
- اللهجات العربية في التراث،أحمد علم الدين الجندي،ط2: النظام النحوي، الدار العربية للكتاب، 1983.
- معجم السمع والمسموعات، سليمان فيّاض، الطبعة الألفية، لبنان.
- معجم علم الأصوات،محمد الخولي، الأردن، 1998.
- المعجم الوسيط ، إبراهيم أنيس وآخرون ، دار أمواج للطباعة والنشر ،ط2، بيروت-لبنان، 1987.
- الموضح في التجويد،عبد الوهاب القرطبي، ت: غانم قدوري،2000.

الهوامش:

(1) انظر، الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مصر، ط 6، 1981م ، ص4 .

(2) انظر، اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، سمير شريف استيته، عالم الكتب الحديث،2005م ص17- 18.

(3) انظر، الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير شريف استيته،دار وائل للنشر،2003م،ص7.

(4) الكتاب، سيبويه، ج4،ص433.

(5) الأصول في النحو، ابن السراج ،ج3،ص401.

(6) شرح شافية بن الحاجب، الإستراباذي ،ج3،ص250.

(7) الرعاية، مكي بن أبي طالب، ص227.

(8) الموضح في التجويد، القرطبي ،ص79.

(9) سر صناعة الإعراب، أبي الفتح عثمان بن جني، ج1،ص171.

(10) كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ج4، ص464.

(11) علم اللغة العام (الأصوات)، كمال بشر ،ص118-119.

(12) علم الأصوات اللغوية، مناف مهدي محمد الموسوي،ص56.

(13) معجم السمع والمسموعات، سليمان فيّاض، الطبعة الألفية،ص8.
(14) الكتاب، سيبويه، ج4،ص433.
(15) سر صناعة الإعراب، أبي الفتح عثمان بن جني، ج3، ص171.
(16) معجم السمع والمسموعات، سليمان فيّاض، ص8.
(17) علم الأصوات اللغوية، مناف مهدي الموسوي، ص57.
(18) الفكر اللغوي عند إبراهيم أنيس، عمار إلياس البوالصة،ص32.
(19) علم وظائف الأصوات اللغوية، عصام نور الدين،ص138.
(20) الكتاب، سيبويه، ج4،ص433.
(21) معجم السمع والمسموعات، سليمان فيّاض، ص24.
(22)انظر، علم الأصوات اللغوية ،مناف مهدي الموسوي،ص58.
(23) علم اللغة العام ،كمال بشر، ص119.
(24)انظر،الكتاب، سيبويه، ج4 ،ص433.
(25) علم اللغة العام، كمال محمد بشر، ص119.
(26) علم الأصوات اللغوية، مناف الموسوي، ص57.
(27) انظر، معجم السمع والمسموعات، سليمان فيّاض، ص24.
(28) انظر، علم وظائف الأصوات اللغوية، عصام نور الدين، ص139.
(29) الكتاب،سيبويه،ج4،ص464.
(30)انظر،الفكر اللغوي عند إبراهيم أنيس ،عمار إلياس البوالصة،ص32.
(31)انظر، معجم السمع والمسموعات، سليمان فيّاض،ص56.
(32)انظر،علم الأصوات اللغوية،مناف مهدي الموسوي،ص59.
(33)علم اللغة العام،كمال محمد بشر،ص119.
(34)انظر،سر صناعة الإعراب،ابن جني،ج1،ص227.
(35) الكتاب، سيبويه، ج4،ص436.
(36)انظر،علم وظائف الأصوات، عصام نور الدين،ص138-ص139.
(37)انظر، الفكر اللغوي،عمال البوالصة،ص32.
(38)علم اللغة العام،كمال بشر،ص119.
(39)معجم السمع والمسموعات،سليمان فيّاض،ص56.
(40)انظر،علم الأصوات اللغوية، مناف الموسوي،ص59.
(41)الكتاب،سيبويه،ج4،ص574.
(42)الفكر اللغوي،عمار البوالصة،ص40.
(43)انظر، علم وظائف الأصوات اللغوية،عصام نور الدين،ص138-139.
(44)انظر،الأصوات اللغوية،إبراهيم أنيس،ص48.
(45)انظر،سيبويه،الكتاب،ج4،ص434-ص435
(46)انظر،ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف،ص60-62.
(47)القرطبي، الموضح في التجويد،ص110.
(48)انظر، المرعشي، جهد المقل،ص153-154.
(49)سيبويه، الكتاب، ج4، ص436.

(50)ابن السراج، الأصول في النحو، ج3، ص404.
(51)ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص76.
(52) ابن يعيش، شرح المفصل، ج5، ص522.
(53) اللغة العربية معناها ومبناها، تمّام حسان، ص63.
(54) الأصوات اللغوية، سمير استيته، ص149-ص150.
(55) اللغة العربية مبناها ومعناها، تمّام حسان، ص63.
(56) انظر، علم الأصوات اللغوية، مناف مهدي الموسوي، ص45.
(57)انظر، علم الأصوات اللغوية، مناف مهدي الموسوي، ص317.
(58)انظر، علم اللغة العام، كمال بشر، ص173.
(59)انظر، الفكر اللغوي عند إبراهيم أنيس، عمار إلياس البوالصة، ص60.
(60) انظر، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي حسن الشايب،عالم الكتب الحديث،2004،ص205.
(61) انظر، سر صناعة الإعراب،أبي الفتح عثمان بن جني،ص171-172.
(62) علم اللغة العام، كمال بشر،ص119.
(63) انظر،اللهجات العربية في التراث، ،أحمد علم الدين الجندي ، الدار العربية للكتاب،1983، ط2 ، النظام النحوي، ص432.
(64) انظر، اللهجات العربية في التراث،أحمد علم الدين الجندي،ص432.
(65) كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر،ص462.
(66) علم اللغة العام، كمال بشر، ص119.
(67) انظر، خصائص اللهجة الكويتية، عبد العزيز مطر، مطابع الرسالة، الكويت،1969، ص15.
(68)انظر، اللهجات العربية بالتراث، أحمد علم الدين الجندي،ط2،ص417.
(69)انظر، الكتاب السابق،ص418.
(70) انظر،الكتاب السابق،ص417.
(71) اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندي، ص434.
(72) انظر، علم اللغة العام، كمال محمد بشر، ص119.
(73) انظر، خصائص اللهجة الكويتية، عبد العزيز مطر، ص15.
(74) انظر، خصائص اللهجات الكويتية، عبد العزيز مطر،ص15.
(75) سر صناعة الإعراب، ابن جني،ص189-190.
(76) اللهجات الكويتية، عبد العزيز مطر،ص16.
(77) انظر ،سر صناعة الإعراب ، ابن جني، ص227- 228 .
(78) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي حسن الشايب،ص206
(79) انظر، سر صناعة الإعراب، ابن جني، ص228.
(80) انظر، اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندي، ص428-432.
(81) انظر، خصائص اللهجة الكويتية، عبد العزيز مطر،ص16.
(82) انظر، علم اللغة العام، كمال محمد بشر، ص119.
(83) انظر، خصائص اللهجة الكويتية، عبد العزيز مطر، ص16.
(84) انظر، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي حسن الشايب،ص33.
(85) انظر، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية، فوزي حسن الشايب، ص37.